

الملتقى الوطني الموسوم بـ:

الشباب الجزائري

"تحديات الحاضر ورهانات المستقبل"

من تنظيم: الزاوية التجانية بتماسين بمشاركة جمعية أضواء رايتس للديمقراطية وحقوق الإنسان

المنعقد بـ: الزاوية التجانية بتماسين، تقرت، الجزائر في: 6-7-8 أكتوبر 2022

عنوان المداخلة:

التربية الصوفية ودورها في تفعيل القيم الروحية عند الشباب "الطريقة التجانية أنموذجا"

إعداد:

د. أمينة تجاني

أستاذة بقسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

جامعة الوادي

الملخص:

تبين هذه الدراسة أهمية التربية الصوفية في تفعيل القيم الروحية والإنسانية في الحياة الاجتماعية وخاصة لدى فئة الشباب، ومواجهة الأزمة الأخلاقية التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية، لا سيما في هذا العصر؛ عصر العولمة وما أفرزه من ثورة في تكنولوجيا الاتصال والتواصل جعلت الشباب لقمة سائغة لوسائله المتنوعة (الأنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي - الألعاب الإلكترونية - برامج الهاتف...)، يحاكي نماذجها السلوكية ويفقدها، وينخرط في صفوفها، فانسلخ عن قيمه، وطغت عليه القيم المادية واختلطت المفاهيم والأفكار والعقائد. وكيف للتربية الصوفية وفق المنهج العرفاني التجاني تكوين شاب متفوق علميا ومنتج علميا ومتخلق روحيا، قادر على النهوض بالبلاد والعمل على تطويرها وازدهارها.

مقدمة:

تعدّ مرحلة الشباب من أهم المراحل العمرية في حياة الإنسان؛ كونها المرحلة التي تساهم في تكوين شخصيته المستقبلية وتجعله قادراً على إثبات نفسه في ميادين الحياة في المستقبل؛ إذ يشعر فيها الشاب بالاستقلالية لاعتماده على نفسه في تأمين كافة احتياجاته الأساسية، والسعي الحثيث نحو حياة أفضل.

لذا يتفق الجميع على أن المجتمعات الحية هي تلك التي تكون فيها فئة الشباب الأكثر حضوراً في كافة المجالات الحياتية؛ إذ أنها تتمتع بعدد الخصائص والمؤهلات التي تجعل منها قوة دافعة نحو المستقبل تتمثل في ثقافة المجتمع الذي ولدت فيه وورثت عنه هويته وخصوصيته.

والخطر كل الخطر أن تتعرض هذه الفئة إلى مشكلات قيمية ونفسية واجتماعية تفقدها مكانتها ودورها وكذلك وظيفتها، وتجعل منها قوى عاطلة. فحالة كهذه تدفع بالشباب إلى فقدان ثقته واحترامه لكل رموز ومعتقدات وقيم مجتمعه ومن ثم تتحل كل الروابط التي تربطه به، ويحوّله إلى معول هدم لنفسه ولغيره، وخاصة في هذا العصر الذي شهد فيه العالم الكثير من المستجدات والمتغيرات التي أثرت على كل المجالات؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية... زاد من حدتها ثورة تكنولوجيا الاتصال والتواصل؛ إذ أصبحت المعلومة هي المتغير الجديد، ومن أمسك بناصيتها فقد أمسك بزمام العالم بوجهه حيث يريد.

وأصبح التحكم والسيطرة من نصيب الدول الكبرى لفرض رؤيتها وفلسفتها المادية، والتبعية من نصيب دول العالم الثالث بما فيهم الدول الإسلامية والعربية التي انخرطت في عالم التكنولوجيا لتحقيق التقدم لشعوبها. الأمر الذي أدّى إلى طغيان القيم المادية على حساب القيم الروحية والإنسانية وخاصة لدى الشباب، لأنهم الفئة الأكثر استعمالاً لوسائل الاتصال والتواصل الحديثة، وما انجرّ عليه من سلوك غير سوي وغير متزن.

ومن هنا كان للتربية دور هام في الحدّ أو التقليل من هذا المشكل المستفحل، لأنّها المسؤولة عن تكوين الأفراد وإكسابهم القيم والخبرات والمهارات التي تمكّنهم من أداء أدوارهم في الحياة لاحقاً، فهي من هذا المنظور "عملية قيّمة، والقيم هي موضوع التربية، وموضوع كل العلوم الإنسانيّة والطبيعيّة على السواء؛ إذ تقف وراء كلّ عمل إنساني وكل تنظيم اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي، لأنّ موضوعها هو علاقة الإنسان بالكون الذي يعيش فيه ونظرته إلى نفسه وإلى الآخرين، وإلى سلوكه وأنواع ضبطه، وإلى مكانه من المجتمع بأنظّمته، وعلاقاته بماضيه وحاضره ومستقبله.

فالتربية إذاً هي القوّة المؤثّرة في تكوين الأفراد، والمسؤولة عن تشكيل هويّتهم بما يضمن تحقيق تنمية شاملة ومتوازنة لشخصيّتهم من جميع الجوانب؛ العقليّة والروحيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة والنفسية والاقتصاديّة. وهذا ما يجعلنا بحاجة ماسّة إلى منهج تربوي فعّال قادر على تكوين شباب على مستوى عال من القيم الروحيّة والإنسانيّة التي توجّهه لما فيه النفع والصّلاح له ولمجتمعهم، منهج قادر على تحويل الشّباب بقيمهم إلى "قوى إصلاح اجتماعي واقتصادي وسياسي على نحو يمكن معه الاستفادة من طاقاتهم وقدراتهم في تحليل قضايا ومشكلات مجتمعهم وعالمهم برؤية شاملة ناقدة، تساعد على إيجاد الحلول المناسبة لتلك القضايا والمشكلات، وكيفية التّعامل الصّحيح معها، ومن ثمّة يتمّ دفع المجتمع نحو النّقدّم والرّقي والنّهضة الشّاملة".

وبعد تنقيب في تراثنا الإسلامي وبحث في نظريات التربية المعاصرة علّنا نجد ضالّتنا ومنهجاً تربويّاً جديراً بالتطبيق على أرض الواقع في مؤسّساتنا التّربويّة والتّعليميّة ينطلق من أصالتنا الإسلاميّة، ويواكب تطوّرات العصر وتحولاته. فلم نجد للمناهج العرفانيّة الصّوفيّة مثيلاً؛ إذ خرّجت نماذج سلوكيّة معتدلة تنبذ العنف والتطرّف بكلّ أشكاله وتتشدّ المحبّة والسّلام في كل مكان وزمان.

فالتصوّف السّنيّ أو ثقافة تزكية النّفس والإحسان -حسب وجهة نظرنا- هي المنهج التربوي الذي ينتظر منه الواقع الرّاهن الكثير والكثير، وبالأخص الطريقة التجانية أو المنهج العرفاني التربوي التجاني الذي كان ولا زال إلى اليوم يلعب دوراً أساسيّاً في غرس القيم والفضائل من خلال بسط ركائز الحبّ والبرّ والإيثار والسّلم والعدل والمساواة بين الناس، فهو عنصر فعّال في تخليق الحياة الاجتماعيّة وتفعيل القيم الروحيّة والإنسانيّة لدى أفراد المجتمع بما فيهم الشّباب.

إشكاليّة الدّراسة:

إنّ الإنسان هو هدف كل تنمية وتقدّم في كلّ زمان ومكان، فهو المورد البشري القادر على البناء والتّعمر وتحسين التّطوّر والرّقي، وهذا ما جعل كل الدّول والمجتمعات حديثاً تبحث في سبل تكوينه وترقيته بشتى السبل حتى تضمن تقدّمها وازدهارها.

وهو أيضا مركز اهتمام جميع الأنبياء والرسل، وموضوع تربيتهم لأنه خليفة الله في الأرض، فهو القائل صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت معلما". فجاء ليعلم الناس ويربيهم ويهديهم إلى الطريق المستقيم، فتجربته النبوية من أكثر التجارب نضوجا ورشدا في تربية الإنسان وإيصاله إلى الهدف المنشود الذي يتناسب مع كمال طبيعته البشرية. تجربة تركّز على تزكية الإنسان والسمو به نحو الكمال، والقيم الروحية هي أسمى ما يتّسم به؛ فهي التي تحي الضمائر فتأمر بالمعروف وتمنع المنكر، ولا تكتفي بالقيام بالعمل، بل تدفع إلى الإتقان وحفظ الأمانة، وتحمل المسؤولية، والعطاء، وغيرها. وعلى نهجه صلى الله عليه وسلم سار أهل الله وخاصته؛ العلماء الرّبّانيون - الصوفية - فاهتموا بالإنسان وأولوا تربيته عناية خاصة من أجل بنائه والارتقاء به.

وانطلاقا من أهمية التربية عند الأنبياء والمرسلين، ومن سار على نهجهم من الأولياء والصالحين، كان لزاما علينا الاهتمام بتربية أبنائنا وشبابنا تربية روحية حتى نتخطى مشكلات العصر وما أفرزته من قيم مادية بحتة. فجاءت هذه الدراسة للبحث في أهمية التربية الصوفية ودور المنهج العرفاني التربوي التجاني في تجسيد القيم الروحية في الحياة الاجتماعية وتفعيلها لدى فئة الشباب خاصة.

وبناء عليه فإن إشكالية البحث تتحدد في التساؤل الرئيس الآتي:

ما مدى فعالية المنهج العرفاني التجاني في تفعيل القيم الروحية والإنسانية لدى الشباب؟

وما تفرع عنه من تساؤلات جزئية، أهمها:

ما المقصود بالتربية الصوفية؟

ما دور التربية الصوفية في تفعيل القيم الروحية والإنسانية لدى الشباب وتكوينهم؟

ما مدى إمكانية تطبيق هذا المنهج التجاني في المؤسسات التعليمية والاجتماعية والتربوية؟

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- ✓ تسليط الضوء على المناهج التربوية العرفانية التي غيّبت كثيرا، وذلك لما حقّقه من نتائج إيجابية في مجتمعاتها الصوفية، يكفينا منها عدم انخراط مريديها في أيّ مظهر من مظاهر العنف أو الإرهاب.
- ✓ الكشف عن دور التربية الصوفية وخاصة التجانية في تفعيل القيم الروحية والإنسانية عند الشباب خاصة.
- ✓ الكشف عن سبل تفعيل القيم الروحية في نفوس أبنائنا؛ أطفالا وشبابا في ظل المتغيرات الحضارية التي أقلقّت العالم وغيّرت مسار الحياة في كافة مناحيها.

أهمية الدراسة:

- ✓ بيان أهمية المنهج العرفاني الصوفي في التربية.

- ✓ بيان شمول المنهج العرفاني التجاني على مراعاة الجانب العقلي والجسدي والروحي مع تنمية مهارات التواصل الاجتماعي، وتنمية الفاعلية والإيجابية لتخريج شباب علماء عاملين عابدين.
- ✓ إمكانية تطبيق المنهج التربوي العرفاني التجاني من أجل الحصول على مخرجات تربوية جيدة تساهم في حل أزمة القيم الروحية والإنسانية التي يعاني منها المجتمع.
- ✓ إفادة المؤسسات التربوية القائمة بمختلف توجهاتها ومستوياتها من أفكار هذه الدراسة ونتائجها وتوصياتها.

خطة الدراسة:

تكونت الدراسة من مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة. المطلب الأول: مفهوم التربية، والمطلب الثاني: التربية الصوفية، والمطلب الثالث: الطريقة التجانية، والمطلب الرابع: سبل تفعيل القيم الروحية لدى الشباب وفق المنهج العرفاني التجاني، والخاتمة ضمت النتائج والتوصيات.

أولاً: مفهوم التربية:

تعددت الآراء ووجهات النظر في تعريف مفردة التربية، وذلك راجع لزاوية نظر كل باحث ومنظر، لكون تعريف المصطلحات يعكس الرؤية المعرفية والعقائدية والقيمية للباحث، وفي هذا الجزء من البحث أردنا تحديد تصور شامل للتربية حتى نبني وجهة نظر خاصة حول مفهومها.

1- معنى التربية في معاجم اللغة العربية:

تعددت معاني التربية في مصادر اللغة العربية، من ذلك:

قول ابن منظور: "أن تكون مصدراً من ربا الشيء، بمعنى زاد ونما"¹. وقول ابن فارس: "مادة (ر ب ب) من ربَّ يربُّه ربًّا، بمعنى ملكه. ويظهر بالاستقراء من أغلب فقهاء اللغة أن أصل مفردة ربَّ لغة بالمعنى المطابق: إصلاح الشيء والقيام عليه"². وقوله أيضاً: بمعنى ارتفع وعلا³. وقول الزبيدي: بمعنى الحفظ والرعاية للشيء⁴. وقول ابن سيده: "الربَّ: أصله في الاشتقاق من التربية، وهي التثنية، وقيل للمالك ربَّ لأنه يملك تثنية المربوب ... ومنه ربان السفينة لأنه ينشئ تدبيرها. ربوت في بني فلان، أربو: نشأت فيهم، ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم: "رُبِّيت في بني سعد بن بكر"⁵.

¹ ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج1، ص400

² ابن فارس، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج2، ص482، 484.

³ المرجع نفسه، ص483.

⁴ الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: علي شبري، دار الفكر، بيروت، 1994، ج2، ص7.

⁵ ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج5، ص155.

فالمعنى اللغوي للتربية يشمل الزيادة والنمو والإشراف، وكذلك الحفظ والرعاية والحماية، والتنشئة بمعنى الترقّي والتسامي والتّعالى بالشّيء.

2- معنى التربية في القرآن الكريم:

ارتبطت لفظة التربية ارتباطاً وثيقاً بمجموعة من المعاني لكونها وردت في القرآن الكريم، من ذلك: التزكية، التطهير، الهداية، التعليم، التأديب. وهذه المعاني كثيراً ما تستعمل في علوم التربية والأخلاق والتصوّف.

أ- التربية والتزكية:

وردت لفظة التزكية في العديد من الآيات القرآنية، منها: قوله تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾¹.

فالتزكية في اللغة بمعنى النماء والزيادة². والزكاة: التطهير، والزكاة: الصلاح، والزكاة: الارتقاء والعلو³. فالتزكية تفعيل من الزكاة، بمعنى النّمّو الصالح، الذي يلزم الخير والبركة، ومعنى تزكيته لهم في الآيات تنميته لهم بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، فيكملون بذلك في إنسانيتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم، فيعيشون سعادة ويموتون سعادةً. فالتزكية هي أن يفعل الإنسان كل ما يصبح به زكياً طاهراً صالحاً.

ب- التربية والتطهير:

يقول تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾⁴. فالطهارة في اللغة: بمعنى النقاء وزوال الدنس⁵. والتطهير: إزالة الأوساخ والقذارات من الشيء ليصفي وجوده ويستعدّ للنشوء والنماء وظهور آثاره وبركاته، والتزكية إتماؤه وإعطاء الرشد له بلحوق الخيرات وظهور البركات.

وكأن الفرق بين التزكية والتطهير، أن الأولى تحلية بالكمالات والثانية تخلية عن النواقص.

ج- التربية والهداية:

الهداية في اللغة: بمعنى الإرشاد، والدلالة على طريق الرشد، والدلالة على المطلوب بلطف والإيصال إلى المطلوب⁶. يقول تعالى: ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾⁷. ويقول أيضاً: ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن

¹ سورة آل عمران، الآية 164.

² الفراهيدي، معجم العين، ج5، ص 394.

³ ابن فارس، مقاييس اللغة، ج2، ص 468.

⁴ سورة التوبة، الآية 103.

⁵ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3، ص 428.

⁶ العسكري، أبوهلال، معجم الفروق اللغوية، ص 42.

⁷ سورة الشورى، الآية 52.

يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي¹. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لأن يهدي بك رجل واحد خير لك من حمر النعم"². فالهداية إيصال إلى الكمال المطلوب، كما هو معنى التربية.

د - التربية والتعليم:

يقول تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ينلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لن تكونوا تعلمون﴾³.

التعليم في اللغة على وزن تفعيل من العلم، والعلم إدراك الشيء بحقيقته⁴. والعلم المعرفة⁵. والعلم بمعنى الشعور بالشيء⁶. والعلم الاعتقاد الراجح سواء أكان يقينا أم ظنا⁷. والذي يظهر بالتتابع استعمالات العلم أنه صفة قائمة في النفس توجب انكشاف وظهور الشيء لها بشكل تام يتميز به عن غيره بنحو لا يحتمل الخلاف. وبناء عليه، يكون معنى التعليم: إعطاء العلم وإكسابه للآخرين بحيث يتم رفع الجهل عن أنفسهم، وقيل: التعليم يختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم⁸. وبما أن الجهل نقص للنفس الإنسانية والعلم كمال لها، يكون التعليم من معاني التربية يجعل نفس المتعلم ترتقي من النقص إلى الكمال.

هـ - التربية والتأديب:

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

¹ سورة يونس، الآية 35.

² السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981، ج2، ص 714، حديث 9606.

³ سورة البقرة، الآية 151.

⁴ الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2010، ص475.

⁵ الجوهري إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987، ج5، ص1990.

⁶ الفراهيدي، العين، ج2، ص152.

⁷ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص475.

⁸ المرجع نفسه، ص475.

فالتأديب في اللغة: مشتق من الأدب، وأصله: أن تجمع الناس إلى طعامك¹، والأدب مَلَكَةٌ تعصم من قامت به عَمَّا يشينه²، والأدب اسم يقع على كل رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل. فالاستعمال اللغوي غير مختص بتهديب الهيئة البدنية للإنسان بل يشمل الهيئات النفسانية من القيم وبهذا يظهر والأخلاق والصفات الوجدانية كالحب³.

وعند الصوفية: "حقيقة الأدب اجتماع خصال الخير، وقيل هو استعمال ما يحمده قولاً وفعلاً، وقيل الأخذ بمكارم الخلاق وقيل هو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك"⁴.

3- معنى التربية في الاصطلاح:

أ- عند علماء الإسلام:

يقول الألويسي: "الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله بحسب استعداده الأزلي شيئاً فشيئاً"⁵. فالتربية: تبليغ الشيء إلى كماله أو حال أحسن من حاله، وبالجملة تنشئة الشيء حالاً بعد حال حتى يصير إلى كماله الحقيقي أو الإضافي شيئاً فشيئاً. ومن الواضح أن المعنى الجامع للتربية هو: إيصال المتربي إلى كماله المستعد له بالتدريج.

ويعرّف خالد الحازمي التربية بأنها "تنشئة الإنسان شيئاً فشيئاً في جميع جوانبه ابتغاء سعادة الدارين، وفق المنهج الإسلامي"⁶. أما صبحي طه فيرى بأن "التربية الإسلامية هي تنمية جميع جوانب الشخصية الإسلامية الفكرية والعاطفية والجسدية والاجتماعية، وتنظيم سلوكها على أساس من مبادئ الإسلام وتعاليمه بغرض أهداف الإسلام في شتى مجالات الحياة"⁷.

وأما فاطمة محمد خير فترى بأن "التربية الإسلامية ذات طابع شمولي تكاملي لجميع جوانب الشخصية الروحية والعقلية والوجدانية والأخلاقية والجسمية والاجتماعية والإنسانية، وفق معيار الاعتدال والاعتزان"⁸.

¹ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج1، ص74.

² الزبيدي، تاج العروس، ج1، ص296.

³ ينظر: عجمي، سامر توفيق، عقوبة الطفل في التربية الإسلامية، مركز الأبحاث والدراسات التربوية، دار البلاغة، بيروت، 2014، ص103، 109.

⁴ عبدة بن سيدي محمد الصغير بن أنبوجة الشنقيطي، ميزات الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية، دار التجاني للنشر، الوادي، الجزائر، ط1، 2009، ص48.

⁵ الألويسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الألويسي)، تح: علي عبد الباربي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ، ج1، ص77.

⁶ الحازمي، خالد بن حامد، أصول التربية الإسلامية، دار عالم الكتب، المدينة المنورة، ط1، 2000، ص19.

⁷ رشيد إبراهيم، صبحي طه، التربية الإسلامية وأساليب تدريسها، دار الأرقم للكتب، عمان، 1983، ص9.

⁸ فاطمة، محمد خير، منهج الإسلام في تربية عقيدة الناشئ، دار الخير، بيروت، 1994، ص5.

وعليه فهي نظام تربوي شامل مستقل، يهتم بإعداد الإنسان الصالح والمجتمع الصالح إعداداً متكاملًا دينياً ودينيًا اعتماداً على المبادئ والتعاليم والمنهجية الإسلامية المستمدة من مصادر الدين الإسلامي الحنيف. ولهذا لا بدّ أن ننطلق من المنهج التربوي الإسلامي الذي يحدّد الآليات والأساليب التربوية انطلاقاً من قاعدة: أي مجتمع نريد أن نبني؟ وأي مجتمع مطلوب إيجاده في واقع حياة الناس؟ لا على أساس ما هو المجتمع الموجود كواقع قائم. أي أن نؤسّس لواقع جديد قائم على القيم الروحية، شباب قادر على نشر المحبة والسلام في كل أرجاء المعمورة، شباب قادر على العمل الجاد والمثمر، شباب يحمل مشعل العلم من أجل التطور المحمود لكل الإنسانية.

ب- عند علماء الغرب:

في موسوعة (الاند الفلسفية) "Education: تربية، تهذيب، تأديب؛ سلسلة عملية إجرائية يدرّب فيها الراشدون (الأهل عموماً) الصغار من جنسهم، ويشجعون لديهم نموّ بعض النّزعات وبعض العادات"¹. ويعرفها (جون ستيوارت ميل) بأنّها "كل ما نفعله نحن من أجل أنفسنا وكل ما يفعله الآخرون من أجلنا حين تكون الغاية تقريب أنفسنا من كمال طبيعتنا"². وأما (رونيه أوبير) فيرى بأنّها "عملية تضمّ الأفعال والتأثيرات التي تستهدف نموّ الفرد من كل جهاته نموًا يسير به نحو كمال وظائفه من حيث التكيّف مع ما يحيط به، ومن حيث ما تحتاجه هذه الوظائف من أنماط سلوك وقدرات"³.

ومما سبق يمكن القول: إنّ التربية تعني قيام القائم بالتربية بصناعة هوية الشاب (شخصيته) وتنمية استعداداته وقدراته في جميع جوانبها (البدنية، القلبية، العقلية) وبمختلف أبعاد الحياة (الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية...) بهدف إيصاله إلى كماله المنشود، والمتوجه إليه بشكل تدريجي، وبنحو مستدام، وذلك من خلال اعتماد مجموعة من الآليات والأساليب المستخرجة من المصادر الإسلامية أو المنسجمة معها.

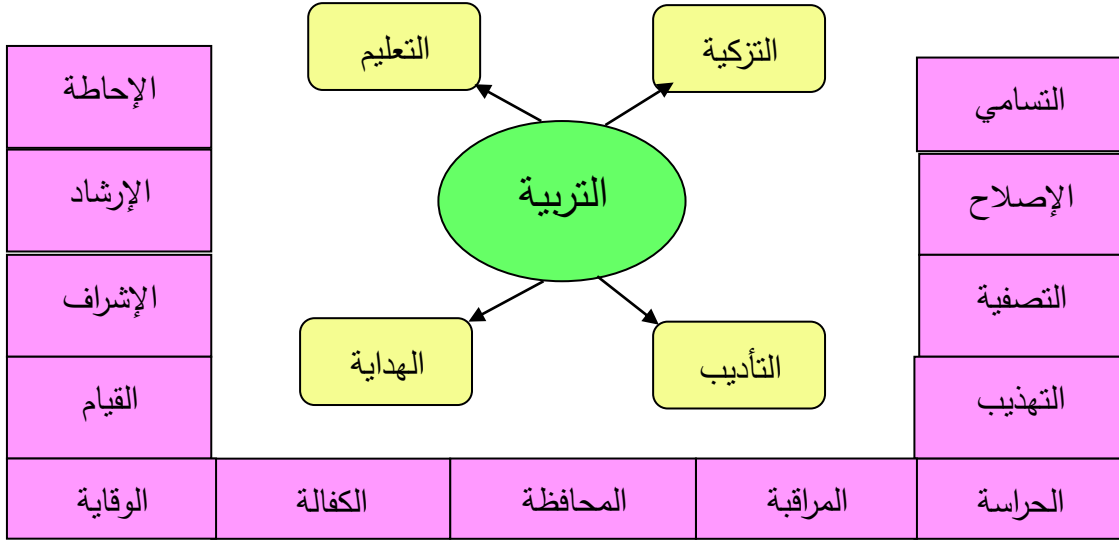
ولهذا فالترّبية تشمل مجموعة من المعاني تشكّل منظومة مفهومية مترابطة فيما بينها ترسم لنا معالم سعة مفهوم التربية على النحو الآتي:

التنمية	الحماية	التنشئة	الرعاية	الصيانة
التعاهد				التأهيل

¹ لالاند، أندريه، موسوعة لالاند

² ينظر: شريف عبد العزيز الزهير

³ رونيه أوبير، التربية العامة، تر



فالتربية تهذيب وتعليم وتأديب وهداية؛ فأما التّهذيب فللروح، وأما الهداية والتّعليم فللعقل، وأما التّأديب فللجسد، ونجد أنّ الصّوفيّة هم الذين أولوا عناية كبيرة بهاته الجوانب جميعا في منهجهم التّربوي، على عكس بعض المدارس التّربويّة الأخرى، سواء الإسلاميّة منها أم الغربيّة. فقد اهتمت المدرسة الغربيّة بجانب واحد دون غيره؛ فالنظرية السلوكية ركزت على السلوك (الجسد)، وقد طبّقت هذه النظرية في مدارسنا التعليميّة ردا من الزمن. أما النظرية البنائية لصاحبها جون بياجيه فقد ركزت على العقل وعملياته المعقدة. أما النظرية الاجتماعيّة لفيجوتسكي فقد ركزت على الجانب الاجتماعي للفرد، وهي اليوم تطبق في مدارسنا مع منهج الجيل الثاني. ففي كل مرة تفشل نظرية لتحل محلها أخرى، ثم تفشل من جديد وتستبدل بغيرها، في حين أنّ المدرسة الصوفية بقيت وفيّة لمنهجها منذ نشأتها إلى اليوم، وهذا يدل على صدق توجهها وصحة مسلكها، وما يؤكد ذلك تخريج نماذج بشريّة متزنة وسوية تنبذ العنف والفرقة والتطرف وتنشد المحبة والسلام. وعليه مهما شرق الإنسان أو غرب في المدارس التّربوية الحديثة والمعاصرة أو وجهات نظر المتخصصين في ميدان التنظير التّربوي، مع ما فيها من الآراء المهمّة والنظريات المبتكرة لن يجد علما كالذي يخرج عن مشكاة النبوة، يقول الغزالي: "إن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مستنقاة من مشكاة النبوة، وليس وراه نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به"¹. فهو الذي سيصل بنا إلى نتائج معرفية مشرقة ومضيئة في مجال التربية.

وهذا ما يدفعنا إلى دراسة التصوف والكشف عن منهجه العرفاني التّربوي وتقديمه في قالب علمي؛ نظرية علمية قائمة بذاتها وصالحة للتطبيق في المؤسسات التعليميّة والتّربوية والاجتماعيّة. وهذا يستلزم منا إنشاء

¹ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص50.

مخابر بحث جادة وبحوث مفيدة ومجلات علمية واعدة على مستوى الزوايا، لاستخراج درر تراثنا والاستفادة منها في هذا العصر الذي لم تُجَد فيه النظريات الغربية نفعاً.

ثانياً: التربية الصوفية:

مما سبق تبين لنا أنّ (التربية) أعم وأشمل من (التعليم) لأنها تضم معاني كثيرة؛ التهذيب والتعليم والتطهير والتأديب والهداية، أما التعليم فهو عملية موجهة إلى العقل والجانب الذهني فقط، بإعطاء المعرفة والفهم والإدراك والتفكير، أما إحداث التغيير في السلوك فهو من آثار التربية.

لهذا اتخذها الصوفية سبيلاً لبناء الإنسان والرفي به نحو الكمال، وأطلقوا تسمية الشيخ المري أو شيخ التربية على الشيخ، والمريد على المترى لأنه أراد تغيير حاله ومآله، فجاء إلى الشيخ بإرادته الحرّة حتى يحسن تأديبه وتهذيبه.

وعليه فالتربية الصوفية هي "عبارة عن تلقين الشيخ مريده أو الأخ أخاه دينه شيئاً فشيئاً لإزالة حجب الحاجبة له عن مشاهدة مولاه شيئاً فشيئاً، بمداواة أدواء نفسه حتى يتقيها شيئاً فشيئاً على حسب تطوّراته طورا فطورا، قال تعالى: "وقد خلقكم أطواراً"¹. ولكلّ طور حكم، فكما أنّه لم يخلق دفعة واحدة كذلك لا يتخلّق بغتة"².

أي أنّ الشاب يتخلّق شيئاً فشيئاً ويجسّد القيم الروحية بالتدرّج في حياته وتعاملاته وعلاقاته وتفاعلاته في المجتمع، فنحصل على شاب راضٍ قانع لا يكثر الشكوى، محبّ لوطنه وساعٍ للعمل من أجل تطويره بالإتقان وتحمل المسؤولية وحفظ الأمانة وتحري الحلال في الكسب وغيرها.

فمدار التربية الصوفية على الحالة الروحية القلبية الراقية والمنتجة للقيم الاجتماعية السوية والمثالية، وقد كان نزول السور القرآنية في المرحلة المكية تؤكد بشكل واضح العناية بالجانب الإيماني لإنتاج الشخصية المسلمة النموذجية التي تعي جوهر الرسالة وتستطيع الثبات عليها والنضحية من أجلها"³. وبذلك تكون دار الأرقم بن أبي الأرقم أول مدرسة في التربية الروحية؛ تهذب النفوس وتلين القلوب حتى تستشعر وجود الله تعالى في كلّ صغيرة وكبيرة، لأنّ تعلّق القلب بالله تعالى يجعل صاحبه يداوم الطاعة ويتجنّب المعصية.

ثم تولى المسجد الأمر بعد ذلك من خلال أبعاده الثلاثة؛ الديني (عبادة)، والتربوي (مدرسة)، والاجتماعي (محكمة) لإصلاح ذات البين، والسياسي (برلمان) للتشاور والبت في القضايا المصيرية للأمة، فقد كان في عهد

¹ سورة نوح، الآية 14.

² عبيدة بن سيدي محمد الصغير، ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية، ص 91.

³ معتوق جمال، أوسرير محمد، الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الانحرافي (التربية الصوفية أنموذجاً)، دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة، الجزائر، ص 134.

رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجدا ومدرسة ومجلس شورى، أما اليوم فأصبح قصرا فخما يقتصر على البعد الدّيني فقط (عبادة).

ولكن في المقابل قامت الزوايا التي أسسها شيوخ الطرق الصوفيّة بهذا الدور، حيث كانت مسجدا للعبادة، ومحكمة للصلح بين الناس ومدرسة للتربية، فكانت مؤسسات تربية اجتماعية تعمل على تربية الخلق وتزكية نفوسهم وتصفية قلوبهم من أجل بناء شخصيّة مسلمة سويّة تجمع بين مطالب الدّين والدّنيا، بين القيم الروحية والمادية اتّباعا للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي "كان خلقه القرآن". وفي ذلك يقول الغزالي: "إن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مستقاة من مشكاة النبوة، وليس وراه نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به"¹.

وإن اختلفت أساليب شيوخ التصوف في التّربية الرّوحية - إذ نجد لكلّ شيخ طريقته ومسلكه الخاص - إلا أنّها لا تتعارض مع بعضها البعض لأنّ الهدف واحد؛ وهو التّوجّه إلى الله، والسّموا بالنّفس الإنسانيّة إلى الكمال الأخلاقي المنشود. والمنهج المتّبع واحد؛ القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة. والذي يقوم على أن يقابل الخير بالخير، وأن يقابل الشرّ بالخير أيضا. وبذلك أسهم شيوخ الصّوفيّة في استبدال إرادة الشرّ بإرادة الخير في الإنسان، وتخليق الحياة العامّة، الشّيء الذي عجزت عنه كثير من البرامج الإصلاحية².

ثانيا: الطريقة التجانية

1- مفهوما:

الطريقة في اللغة تعني الطّريق والسبيل³، أي الطّريق المستقيم الواضح، والسبيل الموصل إلى الله - عز وجل - والمنهج المتّبع في ذلك، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾⁴. وفي الاصطلاح هي "عبارة عن رابطة روحية تتخذ التّعبّد والتّنسك وسيلة لإصلاح الفرد والمجتمع"⁵.

والطريقة التّجانية هي الطريقة التي أسسها الشيخ أحمد التجاني¹، وهي "المنهج السلوكي أو المنهجية المتّبعة لبلوغ مقصد معيّن. وبالمفهوم الصّوفي، هي تصوّر تطبيقي للحياة الرّوحية يسعى إلى الرّبط التّوافقي بين الحقيقة

¹ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص50.

² عبد السلام الغرميني، الصوفي والآخر، دراسات نقدية في الفكر الإسلامي المقارن، المدارس للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص157.

³ ابن منظور، لسان العرب، مج 10، ص 220.

⁴ سورة يوسف، الآية 108.

⁵ آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، منشورات مركز التعليم العربي الإسلامي بأغيغي، نيجيريا، ط2، 1979، ص41.

والشريعة في سبيل التقرب إلى الله تعالى، وذلك ابتغاء تحسين المعرفة بالله لأجل المزيد من الإقبال على عبادته²، لقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾³.

فالطريقة هي منهج يتبعه الإنسان للوصول إلى مرضاة الله عز وجل. ولذا يمكن أن نطلق المنهج التجاني على الطريقة التجانية لأن الطريقة هي المنهج والمنهج هو الطريق والطريقة وما يؤكد ذلك تعريفات المنهج: يقول الألوسي: "والمناهج: الطريق الواضح في الدين، والمناهج: الطريق المستقيم"⁴. فالمناهج الطريق البين الواضح، ويستعمل في كل شيء كان بيئاً واضحاً سهلاً. ويقول الراغب الأصفهاني: النهج: الطريق الواضح، ومنهج الطريق ومنهاجه⁵، وقد قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾⁶. فمعنى الكلام لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمّه، وسبيلاً واضحاً يعمل به.

وبناء عليه فالطريقة التجانية هي المنهج أو المنهج العرفاني التجاني المتبع في التربية، والزاوية هي المدرسة التي يطبق فيها المنهج أو العملية التربوية. فالمنهج له أسس ومبادئ ومحتوى وأنشطة بالمفهوم الحديث. والزاوية لها هياكل مادية وموارد بشرية ومنهاج.

2- أسس المنهج العرفاني التجاني:

¹ الشيخ سيدي أحمد التجاني: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم، ولد سنة (1150 هـ، 1737م) بقرية عين ماضي بولاية الأغواط بالجزائر، ونشأ بها في عفاف وأمانة، وتقى وديانة، كان أسلافه كلهم منتسبين لأهل العلم ومشهورين بالتقى والصلاح، ويصعد نسبه الأبوي إلى الحسن بن الإمام علي -كرم الله وجهه- وحفيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم من ابنته السيدة فاطمة الزهراء. حفظ القرآن العظيم في السابعة من عمره، وما بلغ الخامسة عشر حتى أتم الدراسة بعين ماضي على يد الأستاذ مبروك بن بوعافية، فقرأ عليه مختصر خليل والرسالة لابن أبي زيد القيرواني ومقدمة ابن رشد وكذلك تحصّل على كل ما يلزمه من علم النحو واللغة. ثم مال إلى طريق الصوفية فأخذ العلم عن كبار علماء فاس كالشيخ الدقاق والشيخ السجلماسي، وعلماء مصر مثل الشيخ محمود الكردي، وعلماء الحجاز كالشيخ أحمد بن عبد الله الهندي في مكة، والشيخ السمان في المدينة المنورة إلى أن تصدّر للتدريس وأسس طريقته، درّس في الأبيض سيدي الشيخ والجامع الكبير بتلمسان، وفي جامع الزيتونة بتونس. رحل الشيخ إلى فاس مدينة العلم والعلماء سنة 1798م، وبقي فيها يدرّس ويفتي ويرّي وقد أقبل عليه الناس من كلّ جهة يأخذون عنه العلم والتربية ويعتقون طريقته التي بدأت في الانتشار شيئاً فشيئاً، إلى أن وافته المنية سنة 1230هـ، 1815م. (ينظر: الحاج علي حرازم بن العربي براده المغربي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تح: محمد الراضي كنون، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ج1، ص96 وما بعدها).

² محمد النذير التجاني، الزاوية التجانية بقمار "ماضي- حاضر- مستقبل"، مخطوط، الوادي، 03 جوان 2014، ص02.

³ سورة العنكبوت، الآية 69.

⁴ الألوسي، روح المعاني، ص10.

⁵ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 2002، ص825.

⁶ سورة المائدة، الآية48.

إن أسس المنهج التجاني هي: علم، عمل، عبادة بهذا الترتيب كما أوردها الشيخ سيدي محمد العيد التجاني كترجمة حديثة لثلاثية الشيخ سيدي الحاج علي التماسيني؛ اللوحة والمسيحة والسبيحة، والتي تعدّ تجسيدا لقول الشيخ سيدي أحمد التجاني: "التصوف اتباع الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى"¹. وعليه فأسس المنهج التجاني هي:

أ- العلم:

يعني امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر (في مقام الإسلام) أي العلم بالشريعة واتباع الصراط المستقيم الذي يمثل قمة الوسطية وذروة سنامها وأعلى درجاتها، وفي آيتي الفاتحة دليل قاطع على ذلك، فهو "طريق العبودية، طريق الخوف والرضا والحب، وامتثال المأمور واجتناب المحذور، ومتابعة الكتاب والسنة والعمل بطاعة الله"². فالأساس الأول يركز على القيام بحقوق الدين وواجباته، والالتزام بحدود الله.

ب- العمل:

امتثال الأمر واجتناب النهي في الباطن (في مقام الإيمان) والمقصود به العمل بالشريعة في الباطن أمام الرقيب - الله عز وجل - في كل قول وعمل، فتقيّد العبد داخلياً بضوابط ومعايير الشرع يؤدي حتماً إلى ظهور السلوك المتزن الوسطي البعيد عن الانحراف والتجاوز. فالسلوك الصوفي يُبنى على أساس اتباع الحق الثابت والانقياد بقانون الشريعة داخلياً وخارجياً.

ج- العبادة:

من حيث يرضى لا من حيث ترضى (مقام الإحسان) ويعني عبادة الله تعالى وإرضائه على الدوام، فالمقياس الحقيقي لتحديد الوسطية والخيرية هو "الشرع وليس هوى الناس أو ما تعارفوا عليه أو ألفوه لأن مفهوم الوسطية عند كثير من الناس تعني التساهل أو التنازل، بل والمداهنة أحياناً حيث يختارون الأمر بين الخير والشر وهو إلى الشر أقرب في حقيقته ومآله"³، لأنه وجد هوى في أنفسهم. فالشيخ أحمد التجاني يدعو إلى التزام الحق في كل شيء وتجنب الباطل في كل شيء، وفي ذلك يقول: "وَصَوْنُوا قُلُوبَكُمْ إِذَا رَأَيْتُمْ أَحَدًا فَعَلَّ حَقًّا يُخَالِفُ هَوَاكُمْ، أَوْ هَدَمَ بَاطِلًا يُخَالِفُ هَوَاكُمْ أَنْ تُبْغِضُوهُ أَوْ تُؤْذُوهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مَعْدُودٌ مِنَ الشَّرِّكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى"⁴.

فأسس المنهج التجاني الذي حدده الشيخ أحمد التجاني لنفسه ولكل من انتهج نهجه هو الدين بجميع مقاماته؛ العلم والعمل والعبادة؛ إذ لا بدّ من معرفة شرع الله عز وجل وحدوده؛ حلاله وحرامه. ثم العمل به وتطبيقه ظاهراً

¹ الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ص

² محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي، راجعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1978، ج1، ص 20.

³ علي محمد محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، الإمارات، مكتبة التابعين، القاهرة، ط1، 2001، ص64.

⁴ الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج2، ص759.

وباطنا في الحياة اليوميّة من أجل الوصول إلى مرضاة الله عز وجل، وفي ذلك يقول الشيخ: "وَلْيَكُنْ سَعْيُهُ فِي ذَلِكَ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا لِحَظٍّ زَائِدٍ عَلَى ذَلِكَ..."¹.

إنّ هذه الأسس ترتب الميردين وتدرّبهم على القيم الروحية والحدود الشرعية المضبوطة، وتخلق فيهم وزعا دينيا داخليا ينتج لديهم شعورا وإحساسا دائما بالمراقبة الإلهية، وبذلك "تحول الفرد إلى ساع في الأرض ينشد السلوك السوي ويتوخى الصرامة في احترام القيم الدنيّة التي يؤمن بها والتي تصنع ضميره وتحرك أفعاله"². فالمدرسة التربوية التجانية تعمل على تكوين فرد صالح في المجتمع؛ شاب متفوق علميا ومبدع عمليا ومتخلق روحيا، وهنا يكون الفرق في التربية: بين شاب كثير الشكوى واللوم، يرجع فشله إلى المجتمع والدولة، فيختار طريق المخدرات أو الهجرة غير المشروعة كخلاص لحالته. وبين شاب يسعى جاهدا للعمل ويتسم بالفعالية والإيجابية، ويتعدى عن كل المحرّمات إرضاء لله تعالى، ولا يفكر بطريقة سلبية ولا يبحث عن حجج واهية ليعلق عليها فشله.

ثالثا: سبل تفعيل القيم الروحية لدى الشباب وفق المنهج التربوي التجاني

1- مفهوم القيم الروحية:

أ- تعريف القيمة:

في اللغة: القيمة واحدة القيم، وأصله الواو (ق، و، م)، يقال: قومت السلعة أي ثمنتها، فقيمة الشيء قدره، وقيمة المتاع ثمنه. وتأتي كذلك بمعنى الاستقامة والاعتدال، فعندما نقول: قومت الشيء فهو قويم أي مستقيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فاستقيموا إليه﴾³. أي استقيموا في التوجّه إليه سبحانه دون الآلهة، كذلك يقال: ما لفلان قيمة أي ما له ثبات ودوام على الأمر⁴.

وفي الاصطلاح: القيمة "صفة عينية كامنة في طبيعة الأفعال والأقوال والأشياء، وما دامت كامنة في طبيعتها، فهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات"⁵. "مجموعة العقائد والتراث والمفاهيم المجتمعية والآداب التي تظهر في سلوك الأفراد والجماعات وعلاقاتهم ببعضهم غير القائمة على النفعية أو المصالح المباشرة"⁶. وهي "المعايير الثابتة الخالدة، التي تمثل موازين صلاح الأفعال والأشياء والأفعال"¹.

¹ المرجع نفسه، ج2، ص756.

² معتوق جمال، أوسرير محمد، الصحة الإيمانية، ص143.

³ سورة فصلت، الآية6.

⁴ الفارابي، الصحاح تاج اللغة، م5، ص217.

⁵ مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، ص151.

⁶ ندى الزبير، إحياء القيم الروحية حصن من وباء كورونا، ص04.

فالقيم هي معايير أو مقاييس تسهم في تحقيق التكامل، وهي سبب للثبات على نمط محدد من السلوك فتُعين الإنسان على الاستقامة والاعتدال لأنها مقومة للسلوك ومهذّبة له.

ب- تعريف الروح:

في اللغة: الروح (الراء والواو والحاء) أصل كبير مطّرد، يدل على سعة وفسحة واطّراد، والرّوح بالضم: النّفس التي يحيا بها البدن. يقال: خرجت روحه أي: نفسه. وهو يُذكّر ويؤنّث؛ لأنّ العرب تذكّر الرّوح، وتؤنّث النّفس، وجمعها الأرواح، وهي كذلك بمعنى الرّحمة كما قال تعالى في حق عيسى عليه السلام: "وروح منه"^{2,3} وفي الاصطلاح: جسم لطيف خلقه البارئ تعالى وأجرى العادة بأن الحياة لا تكون مع فقده، فإذا شاء الله موته أُعِدِم هذا الجسم منه عند إعدام الحياة"⁴. فالروح شيء موجود داخل جسد الإنسان وكيانه الداخلي.

ج- القيم الروحية:

هي "مجموعة المعايير التي تحكم علاقة الفرد بخالقه، وتكوّن لديه الوعي بحقيقة الكون والحياة والإنسان، وتحقّق لديه التّدين الصّحيح، وتنمّي لديه الضّمير (الوازع الأخلاقي)، والمسؤوليّة الاخلاقيّة تجاه خالقه، وتجاه نفسه، وتجاه مجتمعه، وبيئته والآخرين من الأفراد المحيطين به، وتوجّه سلوكه وفق ثقافة مجتمعه وقيمه وعاداته وتقاليده"⁵. فهي التي تخاطب باطن الإنسان وكيانه الداخلي (كالصبر والشكر والرضى والتسليم والتوبة والتوكل والعفو...)، وتنظم علاقته بالله تعالى وتحدد صلته به سبحانه وتعالى فتسمو بالروح وترتقي ما يسهم ذلك في تنظيم علاقته بنفسه ومجتمعه. والذي يهمننا هنا كيفية تفعيل هاته القيم لدى الشباب.

2- مظاهر تفكك القيم الروحية والإنسانية:

يتعرض المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات الإسلامية للكثير من التّحدّيات التي تؤثر في أفرادها، وتسبّب خطرا كبيرا على قيمهم الروحية والإنسانية، وخاصة الشباب. وما زاد الطين بلّة مواقع التواصل الاجتماعي التي ساهمت في تفاهم هذه المشكلة بانتشار الكثير من التجاوزات الأخلاقية غير المقبولة، ما أسهم في ظهور أزمة أخلاقيّة على مستوى المجتمع ككل. تتطلب تدخلا سريعا. ومن أبرز مظاهر هاته الأزمة⁶:

¹ محمد عمارة، العطاء الحضاري للإسلام، ص154.

² سورة النساء، الآية 171.

³ ينظر ابن منظور، لسان العرب، م2، ص426. (مادة روح)

⁴ التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج1، ص177.

⁵ أماني طه محمد، فاروق جعفر عبد الحكيم، تربية المواطنة بين النظرية والتطبيق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2013، ص197.

⁶ فاطمة عبد الغني عبد الله الشوافي، تصور مقترح لتفعيل دور الجامعة في مواجهة بعض مظاهر أزمة القيم الأخلاقية لدى طلابها، مجلة كلية التربية بجامعة أسيوط، مصر، م32، ع1، جانفي 2016، ص134، 135.

- ✓ طغيان القيم المادية على جميع فئات المجتمع وعلاقتهم ببعضهم البعض بما في ذلك فئة الشباب؛ إذ أصبحت المصلحة الشخصية هي التي تحدد طبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع.
- ✓ زيادة قيم الاستهلاك وتراجع قيم الإنتاج، فأصبح الشباب مستهلكا للوسائل الحديثة وخاصة وسائل الاتصال والتكنولوجيا دون الاهتمام بكيفية الارتقاء بإنتاجها.
- ✓ غياب قيم العدالة الاجتماعية وخاصة في مجال العمل؛ إذ انتشرت المحسوبية والرشوة... وغيرها.
- ✓ تراجع دور القدوة؛ إذ أصبح معظم أفراد المجتمع يفتقدون النموذج الذي يقتدون به، فأكثر الشباب لا يجدون تلك القدوة، وإن وجدت لا تكون ذو تأثير واضح في شخصيتهم لانتشار المتغيرات الاجتماعية والعالمية التي تحل محلها.
- ✓ تراجع قيمة الانتماء للوطن والاعتزاز به بين الشباب، وهذا مؤثر خطير جدا، فهم أمل المجتمع ومستقبله، وهذا يؤثر على أدائهم الخلقى تجاه المجتمع، فيشعرون بالاغتراب داخله ويبحثون في المستقبل عن الدولة التي تحتضنهم وترعاهم وتحقق طموحاتهم، ما يزيد من معدلات الهجرة، لا سيما هجرة الأدمغة.
- ✓ انتشار السلوكيات السلبية في المجتمع والتي تتنافى مع قيمه، كالكذب والنفاق، والرشوة، وبيع المخدرات وتعاطيها وترويجها، والتطرف بأنواعه المختلفة.
- ✓ تراجع أهمية وقيمة العلم، وازدياد احتقار اللغة العربية؛ لغة القرآن الكريم في ظل وجود اللغات الأجنبية، وانتقاله شيئا فشيئا للتفكير العلمي.
- ✓ ضعف قيمة الحب والخير للآخرين، فأصبح خاص بالذات فقط.

3- آليات تفعيل القيم الروحية لدى الشباب وفق المنهج العرفاني التجاني:

إنّ تفعيل القيم الروحية والإنسانية لدى الشباب وفق المنهج العرفاني التجاني يقتضي تربية الشاب؛ عقلا وجسدا وروحا، وفي ذلك يقول الغزالي: "أما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير، فإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر"¹.

¹ الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص426.

وقد ربّى الشيخ سيدي أحمد التجاني، وسيدي الحاج علي التماسيني وخلفاؤه من بعده الرّجال على "الهمّة، وصقل النفوس على التقوى، فكان في المريدين أباً ملهمًا لترويض العقل على العلم، والذّات على العمل، والروح على العبادة والإحسان"¹. ولهذا فقد شمل المنهج التجاني أساليبًا علمية وعملية وعبادية.

أ- أساليب علمية:

أ-1- التربية بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

يربّي شيوخ الطريقة التجانية الأطفال والشّباب على حفظ القرآن الكريم وتدارسه، ومن ثمّة تدبّره والتفكير فيه كما أمر الله تعالى في محكم تنزيله، وذلك من أجل تجسيده في الفكر وفي العمل وفي العبادة. بمعنى التخلق به في الحياة اليومية كما كان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي "كان خلقه القرآن" كما قالت السيدة عائشة. فالقرآن الكريم يقوم اللسان ويهدّب السلوك، وفي ذلك يقول الشيخ الدكتور سيدي محمد العيد التجاني: "لقد علّمنا التجربة أنّ المتفوّقين في المدرسة النظاميّة هم أولئك الذين مرّوا على المدرسة القرآنيّة فحوّث صدورهم آيات وسور القرآن الكريم فشمّلنهم بركّته وهدايته وإرشاده، فقوّم أسننتهم وهدّب سلوكهم ومعاشرتهم ووسّع آفاقهم، فلنكّن وجهةً أبنائنا الكتابيب يعمرّوها وينهلوا من خيرها"².

وكذلك سيرة خير الأنام صلى الله عليه وسلم التي تغرس في الشّاب الأخلاق المحمدية، فيتمثّلها في حياته اقتداء بسيد الخلق أجمعين -عليه الصلاة والسلام-.

فتفعيل القيم الروحية والإنسانية عند الشباب يستلزم ربيتهم على القرآن الكريم والسنة المطهرة، يقول الشيخ سيدي محمد العيد التجاني: "إنني أجدّد الدّعوة إلى الاهتمام بالقرآن الكريم وتعليمه للنّاشئة، والمحافظة عليه، لأننا أمناؤه عليه، وما اجتمع قوم على أكرم منه، فهو نور ورحمة وتحصين وتربية وأخلاق، كما أوصي بالعبادة بالسيرة النبويّة المطهّرة، والاجتماع على مذاكرتها، ودفع النّاس للاهتمام بها، لأنّها من أوكد الواجبات الدّينيّة التي يجب على المؤمن التعلّق بها والحثّ عليها علمًا وعملاً"³.

أ-2- طلب العلم:

إن العلمية في المنهج التجاني تعني "عدم الممانعة أن تُجاور العلوم الدّينيّة العلوم المدنيّة، ليحظى المنتمون - في مسارهم التكويني - بالمعرفة بشقيها المذكورين، في حيّز مكاني له حكم الأصالة، وصفة الملكيّة، لا يد لأحد فيه على سادة المكان؛ والناظر في الأجهزة - بما فيها المكان - يعاين من الوسائط والآليات ما يبعث على

¹ خطاب افتتاح الملتقى الدّولي الثّاني للطريقة التّجانيّة، الموسم بـ "الخطاب الصّوفي التّجاني زمن العولمة؛ علم - عمل - عبادة"، المنعقد بالوادي، الجزائر، أيّام 4،5،6 نوفمبر 2008.

² خطاب ألقاه بمناسبة الزيارة الموسميّة بزاوية تماسين، الجزائر، مارس، أبريل 2012.

³ خطاب ألقاه بمناسبة الزيارة الموسميّة بزاوية تماسين، الجزائر، مارس، أبريل 2014.

الإكبار، لأنها أمكنة خرجت عن مألوف الأمكنة المعدة للاستغراق الروحي، إلى مجال حيوي فكرة الاستغراق فيه من طبيعة أخرى، التوجه فيها إلى الآخرة - في كل الأحوال - غير مصروف إلى الدنيا بأي حال".
فالزاوية التجانية إلى جانب كونها محلا للذكر والاستغراق الروحي، فهي أيضا مدرسة لكل العلوم والتخصصات، وملتقى للبحوث العلمية والدراسات الأكاديمية، وما هذا الملتقى المقام بمناسبة المولد النبوي الشريف إلا دليلا حيا على ذلك.

فالعلم عبادة في المنهج التجاني، لقوله تعالى: ﴿اقرأ﴾. وشيوخه يحثون الشباب على طلب العلم بهمة وعزيمة، والتفوق فيه لخدمة البلاد والعباد، يقول الشيخ الدكتور سيدي محمد العيد التجاني: "أحبابنا الأكارم. إننا ننتمي إلى مدرسة عظيمة¹، تطلب من مُريديها أن يكونوا في القمة، ويتطلعوا إلى العلياء، ولا يكون ذلك إلا بأساس متين قوامه العلم ... وعلى الجميع الاجتهاد في طلب العلم وتحصيله، لأنه الثور الذي يفتح الله به البصائر فتستبصر، وتثير ما حولها، كما نطلب من شبابنا أن يشمروا عن سواعد الجد، وأن يكونوا في مستوى التطلعات، لأنهم العمدة في الرقي والتطور، وبهم تتحقق النهضة التي ننشدها²."

ويقول أيضا: "كما أنني من هذا المقام أتوجه ناصحا الجميع وخاصة الشباب، بالجدية في التحصيل العلمي، لأننا أمة العلم، وبه كان أول تجلٍ لله على خلقه، حيث أنزل على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ﴿اقرأ﴾³، فالمطلوب منا الاجتهاد في طلبه، فالزمن يتسارع والوقت لا ينتظر ونحن في خضم ذلك لا بد أن نكون مستعدين وبإذنين كل الوسائل لتحقيق ذلك، ومنها: مطالعة الكتب والنهل منها، وتعلم اللغات الأجنبية، وحصد الشهادات العلمية ورفع المستوى الثقافي والفكري لأنه بالعلم والمعرفة يكون الثوير، إننا نريد لشبابنا أن يكونوا في الطليعة وفي مقدمة الركب، فبهم وعليهم الاتكال في تنوير أهلهم وذويهم ومجتمعهم، وتحسين أقرانهم من الآفات الاجتماعية التي تفكك بهم ويمن حولهم وهذه أجل الأعمال التي يعود نفعها على وطننا الجزائر، وبذلك يكونون روادا للبشرية جمعاء⁴."

ب- أساليب عملية:

¹ تلقب الطريقة التجانية بطريقة العلم والعلماء لأنها لم تبخل على الأمة الإسلامية ومجتمعنا الجزائري برجال لهم دورهم في إثراء مكتباتنا بزراد روجي ومعرفي متين، مثل: مفتي شمال إفريقيا ومحدثها سيدي إبراهيم الرياحي، ورائد التعليم بالجزائر الورع العارف عبد الحليم بن سمابة؛ مقدم الطريقة التجانية بالعاصمة الذي يعود له الفضل في أول محاولة لإصلاح التعليم العالي ببلادنا غداة الاحتلال، وشاعرنا الفد محمد العيد آل خليفة، ورائد الصحافة الحديثة عمر بن قنور الجزائري وغيرهم.

² ألقاه بمناسبة الزيارة الموسمية بزواوية تماسين المحروسة، الجزائر، مارس، أبريل 2015.

³ سورة العلق، الآية 01.

⁴ ألقاه بمناسبة الزيارة الموسمية بزواوية تماسين المحروسة، الجزائر، مارس، أبريل 2014.

ب-1 التربية بالشيخ القدوة:

الشيخ القدوة هو يوجه الشباب لله تعالى، بحيث يكون له تأثير كبير عليهم لصدقه وإخلاصه، وفي ذلك يقول الشيخ سيدي أحمد التجاني: "والشيخ في هذه الأمور دال ومعين، لا خالق ولا فاعل"¹. فهو يعين المرید على أمر دينه؛ إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه.

ويقول الشيخ الدكتور سيدي محمد العيد التجاني: "فقد اقتضت حكمة الحق تبارك وتعالى في خلقه أن يوجد بينهم من يتصف بالكمال الروحي وهم الصّوّفة من الناس الذين عهد إليهم بزمام الأمور في هذا الكون، من تربية الخلق والدلالة على الله، فهم بذلك قد اطلعوا على دقائق الأشياء، بما يقتضيه هذا الكمال الروحي من وضع كل شيء في موضعه الذي جعل له"².

فالشيخ الكامل الصالح للقدوة من طرف الشباب هو الذي يدلهم على الله تعالى مقالته؛ وينهضهم إلى الله تعالى حاله؛ وبرؤيتهم له ترتفع همته إلى الله تبارك وتعالى.

فهو شيخ قادر على التأثير فيهم، فيقتدون به في العلم والعمل والسلوك والعبادة، ودرج شيوخ زاوية تماسين على البناء والتعمير، وزراعة غابات النخيل، وعلى نهجهم سار الشباب وخاصة في الزراعة لان العمل عبادة واليد العليا خير من اليد السفلى.

ب-2- التربية بالمجالس الروحية:

تلعب اللقاءات الروحية ومجالس مدح النبي صلى الله عليه وسلم دورا مهما في المنهج التربوي التجاني، فهي مجالس النور التي ينعم فيها الشباب بالسكينة والطمأنينة، وهي محطات إيمانية كأنها الوقود للجسد؛ إذ تعمل على تعبئة الروح بالإيمانيات والروحانيات، ليتمثلها الجسد سلوكا سويا متزنا وسطيا في تعاملاته وعلاقاته وتفاعلاته مع أفراد المجتمع.

فهي حصن منيع للشباب من مجالس اللهو والغفلة، لذا يمكن أن نطلق عليها مجالس النور، ويمكن ان نعتبرها بالمفهوم الحديث أنشطة ثقافية ممتعة، تحي القلوب وتجعلها متعلقة بالله، تختلف عن مهرجانات الكرة ومهرجانات الغناء والتمثيل وغيرها. يقول الشيخ الدكتور سيدي محمد العيد التجاني: إخوة الإيمان. لقد علمتنا

¹ الحاج علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأمان، ص 784.

² مداخلة معنونة بـ"الإنسان الكامل وعلاقته بالطبيعة، سيدي الحاج علي التماسيني ؓ نموذجاً"، ألقاها في الملتقى الدولي للقاءات والموسيقى الصوفية، مراكش، المغرب، 2008.

الطريقة أهميّة التّواصل والتّزاور ولم الشّمل، وجلاء كدر القلوب وتجديد الإيمان بالتّلاقي والتّقارب رغبة في إرضاء الله تعالى باللحمة وسدّ الثّغرات¹

كما أنّها رباط قوي للشباب بمجتمعه بكل أفراد وفئاته، ما يؤدّي إلى اللحمة ونمو روح الجماعة لدى الشّاب، وفي الك يقول الشيخ أيضا: "أيها الأحباب، إنّ عصرنا اليوم عصر تكتّلات لا مكان فيه للضعف ولا للانقسام، عليكم بالاتّحاد والتّأزر والإخاء عملا بقوله تعالى: ﴿أَلْمُؤْتَمِرِينَ﴾². ومقتضى الأخوة أن تتعارفوا وتتواصلوا وتتحابوا وتعصموا بالله أولا وآخرًا عملاً بقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلْمُؤْتَمِرِينَ﴾³. وما هذه اللقاءات المتجدّدة كلّ سنة إلا باعث على التماسك والتّسامح لأنّ الخلاف بجميع أشكاله مدمر للشّعوب والأمم، ولا ينتج عنه إلا الخسارة في الدّنيا والآخرة⁴.

ج- آليات تعبدية:

ج-1- تزكية القلب:

ركز شيوخ الطريقة التجانية في منهجهم العرفاني التربوي على تربية القلب لأنه مدار العمل، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"⁵. فهو مركز العبادة والمحبة والذكر وغيرها، وفي ذلك يقول الشيخ سيدي أحمد التجاني: "اعلم أن المحبة والتعظيم ها هنا هي أعمال القلب، ليس للبدن فيها حظّ، والذكر بدايته من أعمال البدن، ونهايته من أعمال القلب. وأعمال القلب بالنسبة إلى عمل البدن؛ فإنه لو عمل البدن مستغرقا في العبادات أياما متعددة ما لحق لحظة واحدة من أعمال القلب لأن عمل القلب هو الذي عليه المدار وعمل البدن تابع له، وكل عمل خلا من عمل القلب فهو قليل الجدوى ضعيف الفائدة"⁶.

فالقلب محل القيم الروحية والإنسانية، والجسر الرابط بين المعرفة والإيمان من جهة والسلوك من جهة أخرى، فمتى قام بوظيفته المتمثلة في معرفته لله تعالى، وتيقّن بأنه سبحانه وحده المستحق للمحبة والعبادة والذكر، فيتغلب الشاب حينها فقط على شهوات نفسه وملذاتها إرضاء لله تعالى، فتأتي أفعاله متناسقة مع كل ما يحبه الله ويرضاه، فيحيا عندها حياة كلها راحة وسكينة وطمأنينة ويعيش الناس حوله في أمن وسلام. وأما إذا مرض

¹ خطاب ألقاه بمناسبة الزيارة الموسميّة بزاوية تماسين، الجزائر، مارس، أفريل 2010.

² سورة الحجرات، الآية 10.

³ سورة آل عمران، الآية 103.

⁴ خطاب ألقاه بمناسبة الزيارة السنويّة لمنطقتي الطيبات وبن ناصر، زاوية تماسين، الجزائر، ديسمبر 2013.

⁵ البخاري، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، رقم 52، ج 1، ص 28.

⁶ الحاج علي حازم، جواهر المعاني، ص 769.

القلب ولم يؤدّ وظيفته الروحية، فضعت علاقته بالله تعالى أو انقطعت؛ تأتي أفعال الشاب سيئة وتنكت نكتا سوداء في قلبه فتعميه عن رؤية الحق، وتردي به في مهاوي الشيطان.

فتزكية القلب من أهم السبل لتفعيل القيم الروحية في نفس كل شاب وشابة، لقوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾¹.

ج-2- التربية بالمحبة:

من أهم آليات المنهج العرفاني التجاني المحبة، حيث ربّى الشيخ سيدي أحمد التجاني أصحابه وأتباعه على هذا المبدأ؛ محبة الله تعالى ورسوله الكريم واتباعه قولاً وفعلاً، لقوله تعالى: ﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. ولقوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لا يكتمل إيمان أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين".

وفي ذلك يقول: "فليس الشأن أن تحب الله بل الشأن أن يحبك الله، ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خيراً، وأطعته أمراً، وأجبتة دعوة وأثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه وعن محبة غيره من الخلق وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن كذلك فلست على شيء. وتأمل قوله تعالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ فاتّباع هذا النبي الكريم حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ورياحين النفوس ولذة الأرواح وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين"².

فالمحبة رباط القلوب وصفاء النفوس وتحقيق الغايات النبيلة وتوحيد الأهداف من أجل علو الرتبة والتّحلي بالفضائل الإنسانية طاعة لله تعالى ورسوله المجتبي صلى الله عليه وسلم³، والحب هو المعنى المطلق الذي يُحرّر الأدمي من نسبيته التي يكتنفها الشرّ والتي تخضع للضرورة⁴، فمتى امتلأ القلب بالمحبة فلا يمكن أن يصدر عنه ما ينافيها كالكراهية والبغض والعنف والحسد والحقد وغيرها.

وبالتالي لن ينخرط الشاب في أي عنف أو إرهاب أو غيره، وهذا يعالج أهم مشكلات الأزمة الأخلاقية والاجتماعية التي تعاني منها الدول.

ج-3- التربية بالصلاة:

يؤكد المنهج التربوي التجاني على المحافظة على الصلوات، وذلك بأدائها بخشوع، ومراعاة أوقاتها، والمداومة عليه في المساجد مع الجماعة، يقول الشيخ سيدي أحمد التجاني: "وأعظم النوافل تقرباً إلى الله؛ الذكر وكذلك

¹ سورة الشمس، الآيتان 09، 10.

² الحاج علي حرازم، الجواهر، ج2، ص 718.

³ خطاب ألقاه بمناسبة الزيارة الموسمية بزاوية تماسين المحروسة، الجزائر، مارس، أبريل 2012.

⁴ مداخلة معنونة بـ"الإنسان الكامل وعلاقته بالطبيعة، سيدي الحاج علي التماسيني ؑ نموذجاً".

الصَّلَاة بتعاهدنا بالحضور القلبي لأنَّها مثل الذِّكْر¹. ويقول أيضا: "وأديموا الصلوات المفروضة في الجماعات بالمحافظة، فإنها متكفلة بالعصمة من جميع المهلكات إلا في نبذ قليلة توجب العقوبات، وإنَّ الله سبحانه وتعالى بالمدام عليها عناية عظيمة"².

ولهذا يرِّي شيوخ الطريقة التجانية الشباب بتوجيههم إلى الصلاة في المساجد، يقول الشيخ الدكتور سيدي محمد العيد التجاني: "وكذلك أتوجَّه لعموم الأحباب بأن يعمِّروا بيوت الله تعالى، وأن يؤدُّوا الصَّلوات في المساجد مع عموم المصلِّين، ويتركوا الانزواء عن الخلق"³.

ج-4- التربية بالذِّكْر (الورد):

الذِّكْر من أهم الوسائل التربوية للمنهج العرفاني التجاني، لأنَّه يعمل على تحلية القلوب بالفضائل وتخليتها من الرذائل، وبذلك يتسم الشاب بالأخلاق المحمدية والقيم الإنسانية فتظهر في سلوكاته وأعماله، يقول الشيخ سيدي أحمد التجاني: "ثمَّ لا يزال العبد باستمراره مع الذِّكْر إلى أن تخرج به الأنوار إلى استغراق أوقاته في الذِّكْر آناء الليل والنَّهار، فيجد في روحه اكتسابا لم يعهده من الرِّضا بقضاء الله تعالى والصِّبر للبلايا، وعدم الانزعاج منها، والتوكُّل على الله تعالى في نفقاته وأمورها، والبعد عن التكالِب عن الدُّنيا واكتسابها، ثمَّ لا يزال به الأمر حتى يطمئنَّ بذكر الله. فإذا اطمأنَّ القلب بذكر الله، بحيث يصير الذِّكْر له وطنا لا يقدر عن التخلُّف عنه ولو لحظة، ذاق باكورة أهل التَّحقيق..."⁴.

وأذكار الطريقة التجانية وأورادها، هي كالاتي:

الورد المعلوم: يشمل مائة مرَّة من الاستغفار (أستغفر الله)، ومائة من الصَّلَاة على النبي بأيِّ صيغة كانت مع أفضلية صيغة الياقوتة الفريدة⁵، ثم بذكر اسم الجلالة (لا إله إلاَّ الله) مائة مرَّة. وهذا الورد يذكره المريد بمفرده سرًّا، وهو عبادة فريدة في السلوك إلى الله.

¹ الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج2، ص 449، 450.

² المرجع نفسه، ص638، 639.

³ ألقاه بمناسبة الزيارة الموسميَّة بزواوية تماسين المحروسة، الجزائر، مارس، أبريل 2012.

⁴ المرجع نفسه، ج2، ص 459.

⁵ الياقوتة الفريدة: اللهم صلِّ على سيِّدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحقِّ بالحقِّ والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حقَّ قدره ومقداره العظيم

ورد الوظيفة: وتشمل ذكر ثلاثين مرّة (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم)، وذكر خمسين مرّة الياقوتة الفريدة، وذكر مائة مرّة (لا إله إلا الله)، وذكر اثنتا عشرة مرة صلاة جوهرة الكمال¹، وهي عبادة جماعية لازمة كلّما توفّرت شروط الاجتماع للمريدين.

ورد الهيلة: ويشمل ذكر اسم الجلالة (لا إله إلا الله) يوم الجمعة بين العصر والغروب جماعيا من غير عدد حتّى أذان صلاة المغرب. ولمن كانت له حاجة يجعل العدد بين الألف وستّ مائة مرّة حسب الطاقة. والتربية بالذّكر تكون على شقّين؛ بصيغته وبصقته، ويمكن توضيحها كالآتي:

ج-4-1- التربية بصيغة الذّكر:

إن صيغة الورد في المنهج العرفاني التجاني لها دور تربوي مهم؛ إذ ترقي في مقامات الدّين، حيث "يكون بالأخذ بالبداية أولا في مقام الإسلام حتى إذا أحكمه واتصف بمقتضاه بلغه إلى التمكين، والذي هو مقام الإيمان حتى إذا أحكمه واتصف بمقتضاه بلغه إلى النهاية"².

فصيغة الاستغفار ينتج الاستقامة في مقام الإسلام، وصيغة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تنتج المحبة في مقام الإيمان، وصيغة التوحيد (لا إله إلا الله) تنتج محبة الله تعالى في مقام الإحسان، وذلك بإرضائه على الدوام، والتغلب على هوى النفس ووساوس الشيطان.

فالذّكر "له لفظ ومعنى، فاللفظ محله اللسان والمعنى محله القلب، والقلب مشغول بمعان أخرى تأتي بها الحواس التي من أقواها السّمع، فإذا انحسرت مادة السمع بتوجهه إلى اللفظ ولم تبق إلا هواجس القلب والبصر المشغول بصفة الإطراق وهيئة الخضوع والانكسار والإشفاق تفرّغ القلب لتلمّح المعنى أحبّ أم كره مادام اللسان يذكر وارتسام لفظ الذّكر في الخيال من مبادئ صلاح الأحوال في هذا المقام"³.

وأقرب وسائل الذّكر "ذكر اللسان وتابعه الفكر بتدبير معناه المرة بعد المرة، انطبع مقتضى ذلك المعنى في النّفس فحلاها ذاك المقتضى بما تضمنه من الصفات الحميدة وانتفى عنها ما يغيّرها من الصفات الذميمة،

¹ **جوهرة الكمال:** اللهم صل وسلم على عين الرّحمة الرّبانية والياقوتة المتحقّقة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرياح المائلة لكلّ متعرض من البحور والأواني، ونورك اللّامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني، اللهم صلّ وسلم على عين الحقّ التي تتجلّى منها عروش الحقائق، عين المعارف الأقوم صرطك التّام الأسقم، اللهم صلّ وسلم على طلعة الحقّ بالحقّ الكنز الأعظم، إفاضتك منك إليك إحاطة النور المطلسم، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تعرّفنا بها إياه.

² ميزاب الرحمة، ص91.

³ المرجع نفسه، ص96.

وبحسب الدؤوب والمداومة على الذكر يكون استحكام اتصاف النفس بما يقتضي الذكر من صفات حتى يصير ذلك لها طبعاً يصعب عليها العدول عنه¹.

فالمداومة على الذكر بهاته الصيغ تجعل صاحبها متصفاً بالقيم الروحية والإنسانية التي تنعكس إيجاباً في حياته؛ تعاملًا وتواصلًا وعلاقات، فاستقامة الباطن أصل في استقامة الظاهر، لأنَّ "الباطن هو المنفق على الظاهر، والظاهر خادمه"².

ج-4-2- التربية بحال الذكر (الكيفية):

يحرص المنهج التربوي التجاني على بناء الإنسان عامّة والشّاب خاصّة بناء معتدلاً بحيث يكون "إنساناً متوازناً في فرديته ومتوازناً في ميله إلى الجماعة وتعاونه معها، وهو يصل إلى ذلك بوسائل شتى؛ فأما الفردية فينشئه بربط القلب البشري بالله هذه الصلة بالله هي التي تمنح الإنسان وجوده المستقل وتميزه داخل حسه وتؤدي لبث الروح الجماعية في قلبه، فيلين قلبه لأخيه الإنسان ويحبه بمحبته لله، وهذا الحبّ هو الرباط الحي الحقيقي الذي يربط الجماعة في المنهج الإسلامي، وهو يغذيها إضافة لذلك بالتوجيهات الدائمة إلى التعاون والتشاور والوفاق"³.

فأما الذكر الفردي فيظهر في (ورد المعلوم)، وهو يسهم في تنمية الجانب الروحي النفسي للشّاب؛ مركز الثقل في شخصيته، وعلى أساسه تتمحور مواقفه وتفاعلاته ومظاهره الخارجية، إذ تخلق فيه رقابة ذاتية تساهم في انضباطه في المجتمع وذلك بتحقيق المثل العليا في معاملة الناس مع المتغيرات الحضارية.

وأما الذكر الجماعي فيأتي امتثالاً لقوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾. وهو ينمي في الشّباب روح الجماعة ويغرس فيهم قيم التّواصل والتّلاحم والتّرابط والإخاء، والوئام والوحدة والتضامن بينهم وبين باقي أفراد المجتمع. وهذا ما نحتاجه في هذا العصر، يقول الشيخ الدكتور سيدي محمد العيد التجاني: "إننا نعيش بداية ألفية ثالثة حيث الانفتاح والعولمة وكوكبنا على شساعته يتحوّل تدريجيّاً إلى قرية صغيرة لا مكان فيها للتشرذم والانقسام، وهذا ما يوافق أصالتنا وعقيدتنا وتوجيهات ديننا الحنيف: "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمى"⁴.

¹ المرجع السابق، ص 97.

² المرجع نفسه، ص 220.

³ قطب، 2001، ص 165، 167.

⁴ مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ص 526 (رقم الحديث 2586).

فالمنهج التربوي التجاني بكل أوراده - محتواه التربوي - ينسجم مع المنظور الإسلامي للفرد والجماعة، وذلك من خلال تفعيل الروح الجماعية لدى الشاب دون التخلي عن شخصيته أيضاً، فيعمل الذكر الجماعي على إشعار الذاكر بأنه فرد في الجماعة، مسؤول عن نفسه، ومسؤول كذلك عن مجتمعه، تربطهم جميعاً رابطة الدين والمحبة والتعاون. وهذا ما يؤدي بنا للحصول على شاب وسطي بعيد عن نزعات التطرف والغلو في كل مواقفه وعلاقاته مع غيره، ومتسم بالتوازن الذي يثمر قربه من الآخرين وقرب الآخرين منه.

وفي الأخير يمكن القول: إنَّ القفزة التكنولوجية الرهيبة التي آل إليها المجتمع الإنساني الرأهن وما ترتب عليها من سباق معلوماتي محموم في ظلّ العولمة قد قلّص مسافة الزّمان والمكان فعَدَا العالم قريةً صغيرةً، ولكنها ليست المدينة الفاضلة المنشودة، فلا يزال الفقر رُبِعَ السّباق المجنون على الثروة ولا يزال الجوع صكّاً تدفعه جُلُّ البشريّة من الشّعوب المستضعفة للقلة من الدّول التي تعيش على بؤسها، ولم تعد قيم المحبة والعدالة والأخوة بين الشّعوب إلا شعاراً بزّاقاً وحُلماً جميلاً يعيشه المستضعفون. ومن هنا يأتي دور التّصوّف السّنيّ عموماً والطّريقة التّجانيّة على وجه أخصّ مهمّاً في التّعامل مع هذه القضايا. ولا نقول: إنّ التّصوّف هو الحلّ الأمثل والفيصل، ولكن للتّصوّف كلمته في غرس فسانل الحبّ والتّسامح والإحسان والإيثار والصّفح والإخاء بين الأمم والشّعوب، وإنّ هذه القيم فيما نعتقد ليست هي العلم، ولكنها دافعة بلا ريب إلى الغد السّعيد لما يحقّق الله رضاه وللإنسان مبتغاه¹.

خاتمة:

وفي ختام البحث يمكن أن نخلص للنّاتج الآتية:

إنّ التّقدم الحضاري والتّقني الهائل الذي يشهده الناس اليوم ساهم في رفاهية الإنسان من الناحية المادية فقط، على حساب الناحية الروحية؛ إذ أنّ هذا التطور في الحقيقة يشكّل عامل ضغط مستمر على قيم الإنسان الروحية لدرجة أنّ منظومة القيم فسد أكثرها أمام هذا الضّغط المستمر والمتنامي.

تزايد الحاجة اليوم إلى تفعيل القيم الروحية والإنسانية، وذلك بالجمع بين العوامل الروحية والعوامل المادية وهو الأمر الذي سيجعل للمجتمعات الإسلامية قوة وازدهارا على المستوى العالمي إن شاء الله تعالى. التربية تضم معاني كثيرة؛ التهذيب والتعليم والتطهير والتأديب والهداية، ولذا فهي أعم وأشمل من التعليم، لأنّ هذا الأخير موجه إلى العقل والجانب الذهني فقط، بإعطاء المعرفة والفهم والإدراك والتفكير، أما إحداث التغيير في السلوك فهو من آثار العملية التربوية ككلّ، فالتعليم أضيق من التربية، وواقع ضمن دائرتها.

¹ ينظر: محمد العيد التجاني التماسيني، الطّريقة التّجانيّة، مسيرة وتاريخ، الملتنقى الوطني الأوّل للطّريقة التّجانيّة المنظّم من طرف النّحالف من أجل التّجديد الطّلابي الوطني، المركز الجامعي، الوادي، الجزائر، 04، 05، 06 ماي 2010.

تعني التربية تربية المسلم من جميع الجوانب: العقلية، والجسمية، والروحية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية حسب قدراته وإمكاناته لنصل به إلى درجة الكمال الإنساني.

والمنهج التربوي الصوفي هو مجموعة من المعايير والقيم الإلهية الثابتة، والمعارف والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة التي تقدمها مؤسسة تربوية (زاوية) إلى المترين فيها، بقصد إيصالهم إلى درجات الكمال التي هيأهم الله لها، للقيام بحق الخلافة في الأرض؛ بنائها وتعميرها، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

الطريقة التجانية أو المنهج العرفاني التجاني هو الذي أسسه الشيخ سيدي أحمد التجاني، والذي يركز على أسس ثلاث؛ العلم والعمل والعبادة. إذ لا بدّ من معرفة شرع الله عز وجل وحدوده؛ حلاله وحرامه. ثم العمل به وتطبيقه ظاهراً وباطناً في الحياة اليومية من أجل الوصول إلى مرضاة الله عز وجل.

إنّ التربية بالطريقة التجانية تعني تربية الشاب وفق هذه الأسس لإحياء قلبه بالقيم الروحية والحدود الشرعية المضبوطة، وخلق وازع ديني فيه داخلياً ينتج لديه شعوراً وإحساساً دائماً بالمراقبة الإلهية، وبذلك يتحوّل إلى ساع في الأرض ينشد السلوك السوي والمتزن، وينتج شاب متفوق علمياً ومنتج عملياً ومتخلق روحياً.

أبرز الوسائل التربوية في المنهج العرفاني التجاني التي تعمل على تفعيل القيم الروحية والإنسانية لدى الشباب، هي: الوسائل العلمية والمرتكزة على القرآن الكريم والسنة المطهرة، وعلى العلوم المدنية بكل تشعباتها وتخصصاتها. والوسائل العملية والمعتمدة على الشيخ القدوة والمجالس الروحية التي تحي القلب وتذكره بالله. والوسائل العبادية وأهمها تركية القلب بالمحبة والذكر والصلاة.

إن المنظومة التربوية القيمية ذات الأهداف المحددة والواضحة تسهم في تقدّم المجتمع، وهو ما يؤكده القول: "لا ثورة علمية في دولة إن لم تسبقها ثورة تربوية". فمجتمع المستقبل تصنعه المدرسة التربوية الصوفية المتجددة - حسب رأينا - لأنّ التربية تركية وتعليم وتأديب وتدريب، وهذا ما يجب أن تركز عليه الأسرة والمؤسسات التعليمية والمؤسسات الاجتماعية في تنشئة الأطفال والشباب.

ضرورة إيلاء المدرسة الصوفية أهمية بالغة في البحث العلمي لاستخراج نظريات شيوخها وأعلامها في علم النفس التربوي وعلم النفس السلوكي، وخاصة بعد الذي توصل إليه علم النفس الحديث؛ إذ توصل إلى أن الروحانية تشكّل جزءاً مهماً من جوهر العقل البشري، وفي هذا السياق اقترح عالم النفس الأمريكي البروفسور (روبرت إيمونز) أنه ينبغي اعتبار الروحانية نوعاً مستقلاً من العلوم الإنسانية، وأن الذكاء الروحي في جوهره يعني قدرة الإنسان على مسايرة العالم من حوله واكتشاف معناه ومغزاه¹.

¹ ينظر: زهير عبد الرحمن، الروحانيات الإسلامية والصحة العقلية، منشور في موقع يقين، بتاريخ 2018/08/18.

ضرورة العمل التأسيلي لنظريات تتعلق بحقل دراسة الإنسان كعلم النفس والاجتماع والتربية وغيرها في ضوء القرآن والسنة والتصوف، لأن العلوم الإنسانية الغربية تبتني على رؤية كونية مادية متعارضة مع المباني القرآنية والإسلامية، ونقوم بتدريسها في جامعاتنا، ونشرها على شكل ترجمات دون أن نُعمل أي بحث فكري إسلامي فيها، مع أنه يجب تحري المهمة في البحث عن مباني العلوم الإنسانية في القرآن الكريم واستخراجها. ضرورة تفعيل العلاقة الجدلية بين تجربة الواقع في الإنتاج المعرفي الإسلامي والمنجزات التربوية للتجربة البشرية التي سجلتها يد المتخصصين والباحثين في حقل التربية وميادينها.

ضرورة دراسة التصوف بطريقة علمية، وإنشاء مخابر بحث جادة وبحوث مفيدة ومجلات علمية واعدة على مستوى الزوايا، لاستخراج درر تراثنا والاستفادة منها في هذا العصر الذي لم تُجد فيه النظريات الغربية نفعا وخاصة في مجال العلوم الإنسانية.

طرح المنهج العرفاني التجاني كمنهج للدراسات العلمية بديلا عن المنهج العلمي المادي البحث؛ المنهج العرفاني ذو الأسس الثلاث؛ علم، عمل، عبادة. فعندما يكون العلم والعمل محاطا بالعبادة فلن يضر الإنسان مهما كان توجهه وانتماؤه، وبالحب تثمر أعماله، فكما يقول الصوفية أينما تثبت تزر، أي حيثما تكون يجب ان تفيد غيرك.

وأخيرا ندعو الله تعالى أن ينفع بينتنا التربوية ومؤسساتنا التعليمية خصوصا؛ التخصصية منها بهذا الجهد المتواضع، سائلين إياه عز وجل أن يمنّ على مجتمعاتنا بالمزيد من الإنتاج المعرفي الأصيل فيما يتعلق بميادين العلوم الإنسانية.